

امير مراکش والبابا اينوشنسيوس الرابع

طرفة للاب انطون رباط اليسوعي

في مكتبة مخطوطات الفاتيكان السريّة برومية عدّة رسائل عربيّة دنيّة ذات شأن كُنّا اطّلعا على شذرات منها فرغبنا في نقل بعضها بالقيوتوغرافية ومنذ اسابيع قلائل جاءتنا اصابة من هذه المتولات فاستلقت نظرنا رسالة مخطوطة بالحرف المغربي البديع الشكل فأجهدنا النفس على قراءتها رغمًا عن الصعوبة المسبّبة عن رسمها القوتوغرافي وعن نوع تركيب الحروف ومرور سبعة قرون على القرطاس بحيث اتلف منه الهامش . فاذا بها رسالة من امير مراکش ابي حفص عمر الملقّب بالمترضي الى البابا اينوشنسيوس الرابع كتبت في ١٧ ربيع الاول عام ٦٤٨ هجري (١٢٥٠ مسيحيّة) وهي تملأ وجهًا وربع وجه من صفحة كبيرة ابتدأ فيها الخطّاط بالبسملة وأتبعها بالحمدلة بحرف كبير ثم نضد الرسالة على ترتيب خاص بحيث أنّه قصّر الاسطر ووسّع الهامش تباعًا ثم عاد فلأ الهامش بتمامه . وهي محفظة بين مخطوطات قصر سنت النجلو في الخزّانة السابعة العلبة الرابعة العدد ١١ (١)

ولما رغبنا في نشرها جعلنا نشقر في توار يخ العرب ومؤلّفات الاوروبيين عسانا نطلّع على تفاصيل اخرى عن هذه العلاقات واسبابها ونتائجها فعثرنا في المجلد الواحد والعشرين من تاريخ العلامة بارونيوس (٢) على رسالة بعث بها البابا اينوشنسيوس الى صاحب مراکش تاريخها ٢٥ اذار ١٢٥١ يلتمح به الخبر الاعظم الى معنى ما احتوت عليه رسائله السابقة وكأني بالبابا كتب رسالته هذه الاخيرة قبل اطلاعه على جواب الامير عمر الذي نحن بصده . فجمعنا بين اقوال كتبة اوروبة وبين اقوال مؤرّخي العرب كابن خلدون في تاريخه وابن ابي دينار صاحب «كتاب المونس في اخبار افريقية وتونس» والامام صالح بن عبد الرحيم صاحب «روض القرطاس في اخبار المغرب وفاس» ومحيي الدين صاحب «كتاب المعجب في تلخيص اخبار المغرب» وغيرهم واستخلصنا الافادات التالية ليقرّب فهم الرسالة على القراء الكرام

امير مراكش صاحب الرسالة - قال ابن ابي دينار « هو ابو حفص عمر بن الامير اسحق بن الامير عبد المؤمن بن علي بويص في ربيع الاخر سنة ٦٩٦ بعد موت ابي الحسن علي الملقب بالسعيد . عقد له البيعة بمدينة رباط الفتح وارتحل الى مراكش واخذ البيعة عن اهلها واستقام له الامر من مدينة سلا الى مدينة السوس . » وقال الامام ابو محمد صالح بن عبد الحليم في كتاب روض القرطاس : « هو عمر بن السيد ابي ابراهيم اسحق بن امير المسلمين يوسف بن عبد المؤمن . . . » قال ابن زيني دحلان في كتاب المستطاب : « وفي مدته كثرت الفتن بينه وبين مرين واستولى بنو مرين على مدينة فاس ثم حاصروا مراكش فصالحهم على مال يدفعه اليهم كل عام . . . » وهو الامير الثالث عشر من امراء الدولة الموحدية ولي الامارة غرة ربيع الاول ٦٩٦ هـ ومات سنة ٦٦٥ وقام بعده ادريس ابو دبوس فمات سنة ٦٦٧ وبهذا انقرضت الدولة الموحدية وانتقلت بلاد المغرب الى حكم بني مرين وصارت افريقية الى بني حفص محمد بن تومرت المسمى بالمهدي - ورد في الرسالة ذكر هذا الرجل الشهير الذي اسهب مؤرخو مراكش في وصف احواله واخباره فاردنا ذكر شي . من امره . قال صاحبا المونس والمعجب وغيرهما : لما كانت سنة ٥١٥ هـ قام بسوس محمد بن عبد الله بن تومرت في صورة آمر بالمعروف ناه عن المنكر . . . وكان قد رحل الى المشرق في شهر سنة ٥٠١ هـ في طلب العلم وانتهى الى بغداد ولقي ابا بكر الشاشي فاخذ عليه شيئاً من اصول الفقه وسمع الحديث علي المبارك بن عبد الجبار ولازم ابا حامد الغزالي ثلاث سنين وحصل عليه علماً عظيماً . فقتل راجعاً الى المغرب سنة ٥١٠ هـ فلقية عبد المؤمن بن علي فانضاف الى خدمته ثم رحل الى فاس ومنها الى مراكش يدعو الى علم الاعتقاد على طريق الاشعرية وينها عن المنكر فلحق به كثيرون فبايعوه على الرخاء والشدة ثم بايعته القبائل وانتشر خبره في كل الانحاء واتاه الناس من كل فج فاعلمهم انه الامام المهدي المنتظر وجعل توحيداً بلسان البربر وسعى الذين دخلوا في طاعته الموحدون فأشربت قلوبهم محبة واجسامهم طاعته ثم جرت له وقائع مع دولة المرابطين فكان اصحابه ظاهرين واحوال المرابطين في اختلال وتقهقر الى ان تملك الدولة الموحدية على البلاد والله يرث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

سبب الرسالة - كان ابن يعقوب المنصور الملقب بالعاذل امير مراكش فوض امر

الاندلس الى اخيه ابي العلاء ادريس فقوي امر ابي العلاء في الاندلس ثم يبيع له فيها ولم يلبث ان جاز البحر الى مدينة سبتة طلباً للامارة وجرت بينه وبين العادل ثم بينه وبين يحيى خلف العادل حروب كانت فيها الغلبة لابي العلاء. وجددت له البيعة وستي المأمون. قال الشيخ محمد بن ابي القاسم الرعيني القيرواني : كان ابو العلاء فصيح اللسان ضابطاً للحديث الشريف حسن الصوت والتلاوة سالكاً في امور الدنيا والدين حازماً شجاعاً وهو اول من ادخل النصارى الى مراکش استنصر بهم ودخل معه اثنا عشر الف نصراني

وجاء في روض القرطاس ان الملك النصراني اشترط شروطاً قبل موازته بالمال والرجال منها ان تكون الجنود المسيحية في امن من دينهم ودنياهم بمرأش يحفظون شرائع الانجيل ويبنّون لهم كنيسة... فوضى ابو العلاء بالشروط فامده الملك النصراني باثني عشر الفا من الجنود الباسلة فرافقته الى افريقية ودافعت عن صواخه وابلت بلاء حسناً في سبيل حقوقه

وما زال عدد النصارى في ازدياد يسكنون احياء بتمامها مع عيالهم ويخدمون الدولة اصدق خدمة في الجنديّة وتنظيم السلاح الخ حتى ان الحبر الاعظم اقام لهم برضى الامير اسقفاً يسهر على صوالحهم ويهديهم الى مناهج دينهم حفظاً للفرص الواجب وطاعة لمن انتدبهم لخدمته. لكن احوالهم تغيّرت في اواسط القرن السابع للهجرة فاصبحوا عرضة للصوص الذين كانوا ينتهزون فرصة غياب الرجال في خدمة الامير فيفتكون بالنساء والاولاد

هذا سبب رسالة الحبر الاعظم سلمها الى اسقف البلدة ليقدمها الى امير مراکش طالباً اليه ان يسهر على صوالح النصارى لئلا تُبْخَس حقوقهم وعليها يجب الامير كما يلي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ

من عبد الله عمر امير المؤمنين بن سيدنا الامير ابي ابراهيم بن امير المؤمنين بن
امير المؤمنين أيدهم الله تعالى بنصره وامدهم بمعونته
الى مطاع ملوك النصرانية ومُعظم عظماء الأئمة الرومية وقِيم الملة المسيحية ووارث
رئاستها الدينية البابا «اينه سانس اش» اثار الله تعالى بصيرته بتوفيقه وارشاده . وجعل
التقوى التي امر عز وجل بها عُدَّتْهُ لحياه ومعاذه . واثله من سابق الهداية ما يقضي
لمدى العناية بدانهم انفساحه وامتداده . تحية كريمة زاجع بها ما تقدم من تحياتكم
الواردة علينا . ويترجم لكم ارجها عما تغفدكم به المنان لدينا

اماً بعد فأتا نحمد الله الذي لا اله الا هو حمد من علم انه الرب الواحد الذي
دأت على وحدانيته البراهين القاطعة والشواهد . ونصلي على سيدنا محمد رسول المصطفى
الكريم الذي وضحت به للنجاة المذاهب والمقاصد . وخرقت له بظهور المعجزات الباهرة
على يديه العوائد . ونصر بالعرب فالقى له يد الاستسلام كل من كان يناوي ويماند .
وعلى آله وصحبه الكرام الذين اذدات بهم الحاضر والمشاهد . ووصلت قصار صوارهم
في مواقف الحروب السواعد . وانجزت لهم في استيلاء الاسلام على مشارق الارض
ومغارها المواعد . ونسأل الله عز وجل رضاه عن الامام المعصوم . المهدي المعلوم (اطلب
المقدمة) . الذي جد به لدين الله تعالى الشباب المعاود . واهلت بهدياته بعد اقفاها
المعاهد . وباء بالحسران المحتال بامرهم والمكايد . وعن الخلفاء الراشدين المهتدين الذين
تولى منهم اتمام بداية الامام الراشد فالراشد . وعلت بهم لامر الله تعالى المراقي والمصاعد .
وعن سيدنا الامير الطاهر ابي ابراهيم بن سيدنا الخليفة امير المؤمنين بن سيدنا الخليفة
امير المؤمنين الذي طابت منه العناصر والحائد . واشتق من نبعه للخلافة قد اوراق نضارة
وغضارة فشهد المآبد [١] . وزهد في الدنيا الفانية . ورغب في الاخرى الباقية فتمم
الراغب الزاهد

وهذا كتابنا كتب الله تعالى لنا حظوظاً من رضاه تركو وتتوفر . واستعملنا واياكم
بكل ما انتهياً به لاحراز الفوز لديه وننتسر . من حضرة مراکش حرسها الله تعالى ودين
الله عز وجل عالٍ مسماه ومصعده . والتوحيد حال بالظهور جيده ومُقلَّده . والسعي
معمل في ابتغاء وجه الله تعالى موثقه ومسدده . والحمد لله رب العالمين حمداً يتوالى
على اللسان تكرره وتردده . ونستدعي به من مزيد النعماء افضل ما وعد به تعالى من

يشكره ويحمده. والى هذا يشر الله تعالى بتوفيقه اسعادم. وجعل في طاعته التي تعبد بها خلقه اهداكم وايرادكم

فانه سبقت منكم اليكم مراجعات عن كتبكم المؤثرة الواصلة اليها وقدمنا نحوكم من الجواب عنها ما نتمنا به برکم ووفينا. وعرفناكم اننا نوجب لمنصبكم الذي ابر في ملتكم على المناصب. وافر لتبتمكم فيه اهل دينكم بالشغوف على سائر ما لهم من المراتب. فانتم عندنا لذلك بالكرمة الحفيلة ملحوظون. وبالغاية الجليسة محظوظون. فوكد من اسباب المواصلة لكم ما حق ان يؤكّد. ونجدد من عهود الحفاية بكم ما شأنه ان يجدد. ونشكر لكم ما تولى علينا من حسن ايثاركم لجناينا وتردد. وفي سالف هذه الأيام انصرف عن حضرة الموحدين اعزهم الله البشب (١) الذي كان قد وصل بكتابكم اليها انصرافا لم يعدم منا فيه شرف واکرام. ولم يصب فيه اعتناء به واهتمام. كما انه في المدة التي قضي له فيها لدينا بالتمام لم تزل نتغمده اثنائها بالاحسان والانعام. وتحمل كتابنا اليكم ترفيكا بما اختار من انصرافه. وتوخيا في ما اثره من ذلك لاسعافه. وما قصر له في حالي مقامه ورجيله. ولا عدل به عن حمي البر وحفيله وسني المن وجزيله. ذهابا لتكريم اشارتكم السابقة في حقه وسلوكا به من البر على اوضح طرقة. والله تعالى يرشد في كل الاحوال. لازكي الاعمال لديه. وينجز من الاقوال والافعال على ما يقرن اليه يته. ومتى سنح لكم اسعدم الله تعالى بتقواه ان توجهوا لهؤلاء النصارى المستخدمين ببلاد الموحدين اعزهم الله من ترونه برسم ما يصلحهم في دينهم ويجربهم على معتاد قوانينهم فتخيروا من اهل العقل الراجح والسمت الحسن ومن يسير في الزاخرة على واضح السنن وعن يميز في الخدمة بالذهب المستجاد والفضل المنتخب وذلكم هو الذي اذا تعين من قبلكم مستجما للصفات المذكورة ومتحليا بالخلال المشكورة حسن في كل ما [يستخدمه] وتسني له بذلك اجزل الخير واوفره وانتم تفون بهذا المقصود في ما تعملون من اختياركم متى ظهر لكم التوجيه بهذا الرسم لاحد وتعتمدون فيه اجل معتد. وشكرنا لكم كل ما تذهبون اليه في جانبنا من تسنية الاغراض والمذاهب. وتحتفلون فيه من المساعدة الصادرة منكم عن كرم الضرائب. وتبادرون الى بذله من الكارم المناسبة لما لكم في تحلتكم من امامة المناصب مما نكافي به صدق مصادقتكم. ونتوخى منه ما لا يعدل عن

مواقفتكم جزاء لبركم بامثاله واعتناء بما يقضي لولائكم بدوامه واتصاله بحول الله تعالى وقوته وهو سبحانه ييسرنا لنيل الحسنى والزيادة من فضله . ويأخذ بنا في ديننا ودنيانا على اقوم سبله . ويجعلنا وائاًكم بما يمتحننا من التوفيق في اول ربيع من حزب الحق واهله بمنه وكرمه لا رب سواه

كتب في الثامن عشر من شهر ربيع الاول عام ثمانية واربعين وستة
[عنوان الرسالة :]

الى مطاع ملوك النصرانية ومعظم عظماء الامة الرومية وقيم الملة المسيحية ووارثي رياستها الدينية الباب « اينه سانس اش » انار الله تعالى بصيرته بالتوفيق والارشاد ومنحه بتقواه سعادة الحيا والمعاد

يَمِينُ الْعَلِيِّ

رواية تاريخية للاب م. ت السويعي (تتمة)

الفصل الخامس عشر

في اكدار الحاضرة وسرات الآخرة

غابت شمس ذلك اليوم المعدد وارخى الليل سدولة على بيروت . وبينما كانت اصوات الشعب المانح تملأ انحاء المدينة ضجيجاً كان سكوت الموت يحوم على ملعب بيروت قترى في ساحته خاطئاً من العظام المهشمة واللحان المتقطعة التي لا تعرف لها صورة . وعلى مقربة منها كانت الوحوش الشبي رابضة تهضم ماكلها البشرية ريثما تقوم في غد فتقتدي من بقاياها

وبعد وهن من الليل طلع القمر فانار باشعته القضية تلك الجثث وكان هناك بعض النصارى اتوا ليصلوا لاجل اخوانهم المتوفين بالرب فحثل لهم ان البدر سعى الموتى بكفان من النور وان ملائكة السماء انحدرت لتجعل فوق هاهم اكاليل الظفر

اماً دار الورد فانها كانت عادت الى افرحها السابقة برجوع صموئيل رثها . قضى فيها الشيخ المسكين اياماً من الراحة لم يعهد لها منذ نحو عشرة اشهر . وكان يزيد فرحه